وقال فى بعض مجالسه :

هات لى قهوة الشفا من شفاهك ... واسقنيها على نخامة جاهك
عاطنيها يا أوحد العصر لطفا ... وبديع المثال فى أشباهك
يا غزالا لو صور البدر شخصا ... ليضاهيك فى البها لم يضاهك
عاطنيها جهراً شفاها ولا تخـ ... ـش ملاما فلذتى فى شفاهك

وأرسل إلى صديق له :

ذكرتك لا أنى نطقت وإنما ... ذكرتك فى نفسى فكنت سميرها
ذكرتك فى روض تبسم عن شذا ... وقد فتحت كف النسيم زهورها
ذكرتك والأطيار تنطق عن هوى
كأنك قد آويت منهـا ضميرها
فلا خير فى أرض إذا لم تكن بها ... سميراً ولا فى روضة لن تزورها

ذلك مثل من أدب حى حياة تنبض قوية ، يتفتح عن زهر نضير غض ، وهو فى الوقت عينه أدب عميق قوى ، تسمع منه نغمة حلوة بليغة تدل على روح شعب محس بنفسه آخذ فى سبيل الحياة والشباب

فالحق أن شعب مصر فى القرن الثامن عشر ، كان آخذاً فى سبيل نهضة حقيقية فى كل جوانبه ، نهضة وطنية صرف لا تشوبها رطانة أجنبية ولا لوثة أعجمية ولا سيطرة غربية . نهضة لو سارت فى سبيلها وبلغت قصاراها لكانت مصر بها اليوم فى مستوى اليابان أو إيطاليا أو فيما هو فوق ذلك . غير أن القرن الثامن عشر ، واحسرتاه ، انتهى بنكبة شاملة وداهية فادحة باغارة الفرنسيين على مصر ، واكتساحهم كل آثار تلك النهضة الشابة فقضى عليها ولما يتم نموها ، وحفرت بين ماضى مصر وحاضرها هوة عميقة تقطع تيار الرقى الوطنى ، وتقف فى سبيل وصل الطارف بالتالد

فمجد مصر السياسى فى القرن الثامن عشر أصبح نسياً ، ومجد مصر الاجتماعى فى ذلك القرن كذلك قد أصبح أثراً دارساً ، وجهاد مصر الدستورى قد صار دفيناً تحت أنقاض تلك الكارثة ، فلم تبق منه معالم ولا آثار . غير أنا إن فاتنا أن نبنى على أثر هذا التراث المنهوب ، أو ضاع علينا أن نصل حاضرنا بذلك الماضى المضيع ، فليس أقل من أن نعرف أن لنا فى ذلك الماضى أنفاساً يليق بنا أن نحرص عليها ، وأنغاماً يجمل بنا أن نسجلها

محمد فريد أبو حديد

كيف حفرت بئراً

.... لنفسى ؟

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

شقراء ، ذهبية الشعر ، لا أدرى كيف أنبتها هذه الصحراء ؟ ومن بنات الفقراء ، ولكنّ لها دلاً وأناقة تخطئهما عند اللواتى نشأن فى كنف النعمة والترف والثراء ، وفى كلامها خفة وهَزَجٌ ، وفى مشيتها تبختر لا يثقل ، ومَيْس ليس من الاختيال . وكانت ترسل شعرها الوحف ولا تفرقه أو تضفره أو تعقصه ، بل ترده عن جبينها الوضاء وتحسر جمته عن أذنٍ ، وتستر به أذناً . ولا تثبته بالأمشاط أو الدبابيس ، ولا تعصب رأسها بالمناديل ، فاذا عبث به الهواء وأسال قصّها على وجهها رفعت الشعرات بأصبعها أو تحتها عن أذنها ، وكنتُ لا أراها تبتسم إلا خيّل إلى أنها ترى حلماً يسرّها فيثب قلبى إلى حلقى ، وأجدُ حرّ النار فى كفى

وكان بيتى فى ذلك الوقت على « تخوم العالمين » وكانت له حديقة صغيرة جعلتها شُغلانى . وكان الماء كثيراً وثمنه زهيداً ، لا يتجاوز خمسة عشر قرشاً فى الشهر بالغاً ما بلغ ما أجريت منه ، فكنتُ آخذ كفايتى منه وأسنّه على وجهه للجيران ، وكانت هذه الشقراء تجيء كل مساء بجرة فتملؤها مرة أو اثنتين أو عشراً — كما تشاء . فأقف لها وأحادثها وأساعدها على رفع الجرة إلى رأسها . ولم تكن هى الوحيدة التى تستسقى ، ولكنها كانت أبرعهن شكلاً وأخفهن على الفؤاد ، وكانت تأنس منى الميل إليها والإعجاب بها ، فتطيل الوقوف معى أحياناً ، أو تتولى عنى عزقَ الأرض أو بذرَ الحب أو سقىَ الزرع ، واجتزازَ الكلأ والعشب والحشيش أو نزعَ ذلك بأصوله ، وكانت أعرف منى بذلك كله وأخبر ، وكانت تضحك منى لجهلى فتقول لى مثلاً :

« ألا تحشُّ هذه الملوخية ؟ لقد كادت تكتهل »

فأقول : « ملوخية ؟ لقد طرحتُ هناحب فجل فكيف تخرج الأرض ملوخية ؟ »

فتقول : « كلا ، هـذه ملوخية وقد بلغ نبتها المدى ، فاختضرها [1] وإلا فسدت »

(١) الاختضار جز الخضرة

فأقطع ورقة وأمضغها فأجد طعم اللوخية ولا أجد طعم الفجل ، وكنت أهمل أن أكتب أسماء البذور على الورق الذى أحفظه فيها ، وأعتمد على الذاكرة والذكاء فيختلط عليّ الأمر ، وأروح أظنني زرعت جزراً فاذا هو خيار ، وكنت لجهلى ألقى البزر ولا أعنى باعداد الأرض وإخلائها من الحجارة ، وكانت أرض هذه الحديقة جَلْدَةً فى مواضع كثيرة وفى بعضها حجارة غليظة مختلطة بطينها ، فلا يخرج شيء مما يقع على هذه الجلاميد . فكانت الشقراء تنبهني إلى ذلك وتعرفنيه . وكنت ربما تركت فى الشتاء مالا يَبْقَ عليه أصلُه ، وقلعت ما يُبيد الشتاء فرعه ويُبقى أرومته ، فتصلح لى من خطئى ما يتيسر إصلاحه ، ولم أكن أعرف الفرق بين ما يسمو من النبات صُعداً ويستغنى بنفسه ، وما يحتاج ، وهو يسمو ، إلى ما يتعلق به ويرقى فيه ، وما يتسطّح على وجه الأرض ، فأغرس الأعواد لما ينبت مفترشاً ، وأدع ما يحتاج إلى التعلق بلا عصب ، فكانت هى تعلمنى وتقوّم المعوج وتعالج ما أفسدت

ثم حدث أن شركة الماء وضعت لنا فى البيت « عداداً » يحاسبنا على القطرات بعد أن كنا نأخذ بلا حساب ، ولا ننقدها فى الشهر إلا خمسة عشر قرشاً ، فأرهقنى هذا « العداد » وكلفنى فوق ما أطيق ، وصرت بين أمرين : إذا أبقيت على الحديقة جمت وتضورت ، فان أرضها كثيرة الرمل يذهب فيها الماء ولا يبقى منه للنبات ما يكفيه ، فحاجتها إلى السقى لا تنقضى . وإذا أنا ضننتُ بالماء ذهبت الحديقة . فشق عليّ ذلك واشتد همى ، وطال وجوى من جرائه . ورأت هى اغتمامى وسهوى فسألتنى فأفضيت بشجنى فقالت :

« احفر بئراً »

قلت : « ايه ؟ أحفر بئراً ؟ »

قالت : « نعم . ماذا يمنع أن تفعل ؟ »

قلت : « يمنع أن هذه أرض مضرّسة ، حشوها حجارة ولا يمكن أن يكون فى جوفها ماء »

قالت : « من أدراك ؟ إنى أعتقد أن فى أرضك ماء غزيراً »

قلت : « أما الحرث والزرع فشيء عرفنا أنك تعرفينه ، وإن كنت لا أدرى من أين جاءك هذا العلم ، وأما الآبار وحفرها . . »

فقاطعتنى وقالت : « أظننى أستطيع أن أدلك على موضع العين فى هذه الأرض — غدا فى النهار أختبر الأرض وأجسها »

* * *

وفى عصر اليوم التالى جاءت وفى يدها عود على هيئة اللام ألف ، ولكنّ فى ساقه ، قبل موضع التشعّب ، طولاً وقالت :

« أنظر . سأجس الأرض بهذا » ورفعته لعينى

فقلت : « وكيف تصنعين ؟ إنه غصن لا أكثر »

قالت : « هو حسبى . وما أعرفه خذلنى أو كذبنى قط ، ولكن عهدى بهذا الجس بعيد وأخشى أن أكون قد فقدت القدرة على استنباثه »

قلت : « استنباؤه ؟ أو يقول لك هذا الغصن أين منبع الماء فى جوف الأرض ؟ »

قالت : « نعم ، وسترى بعينيك إذا وفقنى الله »

وأقبلت على الأرض تجسها شبراً شبراً ، وكانت تضع العود على الأرض كأنها تغرسه فيها وتسنده بأصابعها وتنظر إلى شعبتيه برهة ، ثم ترفعه وتقدمه خطوة أو خطوتين ، وهكذا يميناً وشمالاً ، حتى رأيت إحدى الشعبتين تميل قليلاً فعجبت

فقالت : « هنا ماء ولكنه قليل »

ومضت تنقل العود من مكان إلى مكان حتى بلغت الجدار الآخر فقالت :

« يخيل إلى أنى سأخفق »

فلم أقل شيئاً ، وماذا عسى أن أقول ؟ لقد تركتها تختبر الأرض وأنا كافر بها — أعنى بالفتاة وقدرتها على الاهتداء إلى منابع الماء فى بطن الأرض ، ولكنى قلت إنه لا بأس عليّ من ذلك ، وحسبى أنى أقضى معها ساعة أنعم فيها بحديثها وبالنظر اليها ، ولكن انثناء العود إلى الأرض ، من تلقاء نفسه ، ومن غير أن يمسه شيء حيرنى ، وصرفنى عن الفتاة وجمالها ، إلى هذه الظاهرة الغريبة

وجعلت أقول لنفسى : « إذا كان كل ما يتطلبه الأمر أن يجيء الانسان بمثل هذا العود ذى الشعبتين ، وأن يركزه أو يغرسه فى الأرض ، فاذا كان هناك ماء انثنى وحده ، فما أسهل ذلك ! ! وكيف غاب هذا عن الناس وفاتهم هذا العلم اليسير ؟ »

ولم أكتم هذا الذى دار بنفسى ، فقالت بابتسام : « لا . إن المعوّل على اليد لا على العود »

ولم أفهم شيئاً ، ولكنى سكت ، فقد تجهمتْ ، وطال سكوتها وتقطيبها ، وثبت حملاقها ، وبدت لى كأنها تعصر نفسها عصراً ، ثم قالت :

« افتح هذا الباب »

وكان باب حجرة مهجورة فى فناء البيت ، نحبس فيها الدجاج ، ففتحته فدخلت وقالت : « انزع هذا البلاط »

فأطعت ، وتجشمت عناء شديداً ، ولكنى أمضيت لها مشيئتها ، فحنت على الأرض ، وأقامت العود فى ترابها ، وإذا بالشعبتين جميعاً – بعد هنيهة – تنثنيان على الأرض – عمودياً – حتى لخيل إلىّ أنهما ستقصفان

ونهضت ، ومسحت العرق المتصبب ، وقالت :

« هنا يجب أن تحفر . الماء غزير ، ولكنه بعيد . وماذا يهم ؟ ستجد فوق الكفاية من الماء »

ولم يخالجنى شك فى صدقها ، فجئنا بعد أيام بالرجال ، فحفروا ووسّعوا ، واحتجنا أن نهدم الجدار الذى فيه الباب فأتينا عليه ، وانحدر الرجال الى أكثر من ستة أمتار ، وقضوا فى ذلك أياماً طويلة ، حتى بلغ أحدهم حجراً فزحزحه بالمعول فأنبط الماء من تحته واستغنيت عن شركة الماء

***

وقلت للفتاة : « لماذا جشمت نفسك هذا العناء ؟ »

قالت : هو جزاء المعروف »

قلت : « ليس إلا ؟ »

قالت : « وعز علىّ أن تضطر الى تضييع الحديقة »

قلت : « وماذا أيضاً ؟ »

قالت : « لا أدرى ماذا أيضاً ؟ غلبنى شعورى »

قلت : « ليس فى وسعى أن أجزيك . . . . »

قالت تقاطعنى : « لا تحاول ! . . . . حسبى أنى أعدت الى وجهك الابتسام »

قلت : « اسمعى . إن الحديقة مدينة لك بحياتها ، وأنا مدين لك بمعنى هذه الحياة ، ولست أظنها تقوى على فراقك ، ولا أنا يا فتاتى . . . . »

قالت : « لم أصنع شيئاً »

قلت : « أزخرت حياة كادت تجف وتذوى ، فماذا يستطيع انسان أكثر من هذا ؟ »

قالت : « كلا . كل ما صنعت أنى وجدت ماء ، وقد وجدته مائة مرة قبل اليوم ، فلم أسمع مثل كلامك . . . . انك تمزح ولاشك ! »

قلت : « بل أنا جاد . لا غنى بى ولا بالحديقة عنك . . . . فما قولك ؟ »

قالت : « كلا . للحديقة صاحبها ، ولك الدنيا ، أما أنا فذاهبة »

قلت : « ذاهبة ؟ أين ؟ »

قالت : غداً – أو بعد غد – يرحل أبى ، وأنا معه ، فما بقى ما يستوجب مقامنا »

فدنوت منها ووضعت يدى على كتفها وسألتها :

« أنت أوعزت اليه ؟ »

قالت ، وهى مطرقة : « نعم . والآن أستودعك الله ! »

فتعلقت بها فلم يجدنى ذلك وقالت :

« أنا بنت الصحراء ، وأنت ابن المدنية . . . لست لى ، ولست لك . . . وقد تركت لك الحديقة . . . . لتذكرنى بها »

وكان هذا آخر عهدى بها . . .

ولكنى لم أطق هذه الذكرى ، ولم أعد أحتمل أن أرى الحديقة أو البئر التى حفرتها ، فتركت ذلك كله وانتقلت الى بيت آخر . . . بعيد . . . بعيد جداً ، ولا حديقة له !

ابراهيم عبد القادر المازنى

صدر كتاب :

فى أصول الأدب

محاضرات ومقالات فى الأدب العربى

بقلم

احمد حسن الزيات

يطلب من إدارة « الرسالة » ومن جميع المكاتب
وثمنه ١٢ قرشاً عدا أجرة البريد